

محاضرات مقياس الأدب الشعبي الجزائري

السنة الثانية ماستر أدب جزائري

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 03: شعر المديح النبوي

1/ توطئة:

حفلت مدونة الشعر الشعبي الجزائري بأهم الأغراض الشعرية المعروفة في الشعر الجزائري والعربي الفصيح، وكان من أهم هذه الأغراض الشعر الديني عموما وشعر المديح النبوي خصوصا، وقد أشار أكثر من باحث إلى هذه القضية الملفتة مثل الناقد عبد الله الركيبي في كتابه (الشعر الديني الجزائري الحديث) وعبد القادر فيطس (الشعر الملحون الديني الجزائري قضاياه الموضوعية وظواهره الفنية) هذا بالإضافة إلى ما قدمه عبد اللطيف حني من أبحاث أكاديمية ومقالات علمية حول الشعر الديني الشعبي الجزائري والمديح النبوي، علاوة على الرسائل التي تناولت دواوين شعراء المديح والتصوف بالدراسة والنقد والتحليل أمثال سعيد بن عبد الله المنداسي، ومحمد بن مسايب من المتقدمين، وعبد القادر بطبجي وقدر بن عاشور الزرهوني من المتأخرين.

1/ التوجه الديني للشعر الشعبي الجزائري (الأسباب والبواعث)

استمد الشعر الشعبي الجزائري من الدين الإسلامي أهم موضوعاته وأساليبه الفنية، ويعود ذلك إلى النشأة الدينية للشعراء الشعبيين، فقد تعلموا وتكونوا في الزوايا بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وشبوا على مختلف التقاليد الإسلامية مما ساهم بشكل كبير في تعلمهم آداب اللغة العربية وعلومها وتشبثهم بقيم الدين الإسلامي ومبادئه، هذا من جهة ومن جهة ثانية «أن محنة الاستعمار والحالة الصعبة التي يعيشها الشعب الجزائري، حركت في شعراء الملحون كوامن العواطف الدينية، وجعلت أكثرهم يركنون إلى الدين في معظم أغراضه وموضوعاته،

حينما أحسوا بفقد حريتهم وحرية شعبهم، وحرية وطنهم، جعلهم ينكفئون على أنفسهم ليكون حالهم وواقعهم، ويصوغونه شعرا ملحونا مصبوغا بصبغة دينية، ومن خلال الدين يستنهضون الهمم ويحثون شعبهم على المقاومة والاستعارة من الماضي المجيد للأسلاف بالمدح أو الاستلهاح لاستنهاض الهمم للثورة على الاستعمار، أو للهروب من ظلمه، لأنهم وجدوا فيه الباعث الأساس والملاذ الوحيد للهروب من واقعهم أو نسيانه على الأقل»¹

وبذلك شق الشعر الديني الجزائري طريقه وحط رحاله، وتمكن من قصائد الشعراء بفضل هذه الدوافع والنوازع، فانتشرت المدائح الدينية والمولوديات والتغني بالمناسبات الدينية المختلفة بشكل واسع، وقوى ظهور هذا الغرض «الذي سيطر على الحياة الفكرية والسياسية والثقافية، وترك المجال مفتوحا أمام هذا اللون من الشعر، فأخذ الشعراء يلتفتون إلى عصر الرسالة يشتدون به من هذا الظلم الذي سلط عليهم فوجدوا في المدائح الرحاب التي يمكن أن يسكنوا إليها ويطمئنوا فيها وأنشدوا تلك القصائد وكأنهم يرثون الحالة التي وصلت إليها البلاد...

وقد ركز الشعر الديني الجزائري على مدح النبي (ص) وآله وصحابته، ومدح الشيوخ والأولياء الصالحين، وانقسمت هذه المدائح إلى نوعين؛ فالأول هو ما كان امتدادا للتراث القديم في هذا الموضوع، وهو يرتبط أساسا بالنظرة الصوفية إلى حد كبير. أما النوع الثاني فهو الذي اتخذ من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ الدعوة إلى النهوض واليقظة وذلك بعد أن تطورت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية فالأول كان تعبيرا عن مرحلة حضارية عاشتها الجزائر قبل هذا القرن، وكان الدين فيها قد أصبح هو القوة الوحيدة التي بقيت للناس في حياتهم، أما النوع الثاني فكان تعبيرا عن مرحلة حضارية جديدة انتقلت إليها الجزائر للظروف التي تحدثنا عنها سابقا»²

¹ عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الجزائري (قضايا الموضوعية وظواهره الفنية، دار سحنون للنشر والتوزيع، د ط، د ت، ج1، ص 123.

² ينظر: عبد اللطيف جني، المدائح النبوية في الشعر الشعبي الجزائري، مجلة كلية الآداب واللغات، محمد خيضر بسكرة، العدد 10-11 جانفي-جوان 2012، ص 66/67.

وقد أشارت كثير من المصادر إلى هذا النزوع الديني والصوفي في حواضر المغرب العربي (القيروان، الجزائر، فاس) عموماً خاصة بعد انتشار الطرق الصوفية وتوسعها وقيام الدولة الفاطمية بالقيروان التي كانت تعنى أشد العناية بالاحتفاء بالمناسبات الدينية واستمر هذا التقليد إلى عهد الدولة الزيانية بغرب مدينة الجزائر لعهد أبي حمو موسى بن يوسف الزياني. وهذا محمود علي مكي يتحدث في كتابه عن ازدهار شعر المديح في المغرب والأندلس قائلاً: «واستمر الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب والأندلس على المستويين الشعبي والرسمي طوال العصور التالية، واتخذ في هذا القرن الثامن الهجري، بصفة خاصة من مظاهر الفخامة ما أصبح به من أعظم الأعياد الإسلامية، وتتوّ المصادر المغربية بالاحتفالات التي كان يقيمها بهذه المناسبة السلطان أبو حمو موسى ابن يوسف الزياني ملك تلمسان (في غربي الجزائر)»¹

لذلك فقد اتخذ الشعر الشعبي الديني الجزائري من الابتهاال والاستعانة بالله تعالى ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ومدح الشيوخ والأولياء الصالحين موضوعات لقصائده، وأضحى الشاعر الشعبي يتكئ على هذه الخلفية الدينية للبيئة التي يعيش فيها وتشرب تعليمها من الكتاتيب والزوايا أو عن أشياخه من الطرق المنتشرة في ربوع الجزائر، لذلك فأغلب الشعراء الذين أبحروا في هذا اللون الديني كانوا من المتصوفة أو ممن تأثروا إلى حد بعيد بمذهب التصوف وتعاليمه الدينية والفلسفية سواء كانوا من القدماء، أمثال سعيد بن عبد الله المنداسي، وسيدي لخضر بن خلوف، ومحمد بن مسايب، أو بن التريكي أو من المتأخرين الذين جاؤوا بعد المرحلة الاستعمارية ونذكر منهم عبد العزيز المغراوي، الحاج عيسى لغواطي، عبد القادر الزرهوني، عبد القادر بطبجي وغيرهم من الشعراء الذين نظموا المديح النبوي والوعظ والإرشاد ومدح الأولياء الصالحين، حتى وإن لم يشتهروا بوصفهم صوفية، فإن قصائدهم لا تكاد تخلو من المعاني الصوفية والدلالات والمصطلحات الصوفية.

¹ محمود علي مكي: المدائح الدينية، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، مصر، ط1، 1991، ص 127.

2/ المديح النبوي في الشعر الشعبي (المفهوم والنشأة)

يتحدث زكي مبارك عن مفهوم المديح النبوي وعن صعوبة تحديد نشأة هذا اللون الشعري في البيئات العربية بقوله «المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع: لأنها لا تصدر إلا قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول»¹

ويستطرد موضحا سبب عدم التأريخ والاهتمام بهذا اللون الشعري قائلا: «ولم يعن أحد من القدماء أو المحدثين بتاريخ هذا الفن في اللغة العربية لأن الذين أجادوه لم يكونوا في الأغلب من فحول الشعراء، ولأنه لم يطرّد في التاريخ، ولم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية كالرثاء، والوصف، والنسيب، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل»²

إلا أن عبد الله فيطس يحاول أن يقدّم مفهوما أوسع لفن المديح، والذي نراه يتماشى وطبيعة هذا النوع الشعري في بلادنا، باعتبار خصائصه وأهم موضوعاته قائلا: «المديح ينصبّ على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتركيز على صفاته وشمائله ويتناول المولد النبوي، وفضل التصليّة وثوابتها، وكل ما يتعلق به، وكانت قصائد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تتشد في المجالس أو حلقات الذكر ويستعمل فيها إيقاع خفيف يعبر عن الحالة النفسية أثناء التردد الجماعي، وهناك بعض المداحين القوالين محترفون في إنشاد قصائد المولديات التي تحكي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يتخذونها حرفة ينشدونها في الأسواق خاصة غزواته التي تثير في المسلمين الاعتزاز والفخر، ومن المتصوفة أو المريدين ينشدونها في حلقات الذكر أو داخل الحضرّة، وكل جوانب عظمته في نبوته وإنسانيته، وبالجانب البطولي في جهاده»³

¹ زكي مبارك: المدائح النبوية، دار المحجة البيضاء، ص 17.

² نفس المرجع ص 18.

³ عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الديني الجزائري (قضاياها الموضوعية وظواهره الفنية)، ج1، ص 124.

ويسترسل الباحث -عبد القادر فيطس- في ذكر أهم الموضوعات التي يطرقها المديح في الشعر الملحون الجزائري.

بالإضافة إلى مدح آل البيت والثناء عليهم، وتتبع مناقبهم وصفاتهم وأخلاقهم وما يجب في حقهم، وواجب الولاء لهم ومن يحتمي بحمى العترة النبوية الشريفة، ومدح الخلفاء الراشدين والصحابة وتمجيدهم، والاستتارة من نهجهم وحياتهم.

ومدح الأولياء والصالحين باعتبارهم رموز الخير والصلاح، ويبدو أن هؤلاء، قد حظيت أشعارهم بالقسم الأكبر من الشعر الملحون، حيث أن شيوخ الطرق الصوفية نظموا أشعارا في أغراض دينية شتى كان محورها الرسول صلى الله عليه وسلم والإشادة بالطريقة والدعاية لها.

وتروج تعاليمهم سواء في قصائد الشيوخ أو القصائد المريديات والمادحون معظمهم من الأتباع، سواء كان الشيوخ أحياء أو أمواتا.¹

أشارت معظم المصادر المغربية وغير المغربية بأن المدائح النبوية انتشرت وازدهرت مع الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب العربي وكذلك ظهور الطرق الصوفية وعنايتها الكبيرة بهذا اللون من الشعر «وفي عهد الفاطميين ظهر الاهتمام بالمولد النبوي وإلقاء قصائد المديح النبوي مع أعمال الصوفية، إذ كانوا ينظمون أشعارا ينشدونها ويختمونها بدعاء، والأشعار التي نظمت في مدح الرسول بمناسبة ذكرى مولده وإن كانت بسيطة في ألفاظها ومعانيها فإن لها الأثر العميق في الأوساط الشعبية»² أما فيما يخص المغرب العربي والجزائر تحديدا فإنه «وفي عهد الأتراك انتشرت المدائح بكثرة وركن الناس إلى الدين واحتموا به فكثر الزهد وانتشرت المدائح النبوية يشيدون فيها بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم وبأخلاقه وفضله وصفاته وغزواته

¹ ينظر: عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الديني الجزائري (قضايا موضوعية وظواهر فنية)، ج1، ص 125.

² نفس المرجع ص 160.

وأصحابه... وكانت هذه المدائح بعضها بالعربية الفصحى وبعضها ملحونة بالعامية تلقى في المساجد والمنتديات والمجالس خاصة بمناسبة المولد النبوي»¹

واستمر هذا التقليد أثناء الاستعمار وبعده لتشابه الظروف. ورواج هذا الفن في أغلب الحواضر خاصة أثناء المناسبات الدينية.

3/ المديح في الشهر الشعبي الجزائري (الأعلام والموضوعات)

اهتم الشعراء الشعبيون قديما وحديثا بموضوع المديح النبوي وذلك ما نجده ماثورا في دواوينهم ومخطوطاتهم التي حفلت بمدح النبي والإشادة برسالاته السامية، كما وصفوا جماله، وحاول الشاعر ترسيخ حب النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب الناس وشد نفوسهم ولفت رغائبهم إلى سنته وهديه الشريفين «فقد عرفنا أن شاعرا كبيرا في الفصيح، وهو سعيد بن عبد الله المنداسي عالج المدائح النبوية وغيرها من النواحي الدينية في قصيدة بالملحون تعرف بـ"العقيقة" وهي التي شرحها أبو راس وابن سحنون وكانت موضع حديث الناس مثقفين وغير مثقفين»² والقصيدة تعد غرّة من غرر الشعر التي طار اسمها في الآفاق وشرحها كل من أبو راس وابن سحنون كما ترجمت للغة الفرنسية وتناولها بالدراسة كثير من الباحثين أمثال أبو علي الغوثي في كتابه (كتاب كشف القناع عن آلات السماع) كاملة بشرحها والتعليق عليها، حيث يبحر شاعرنا في قصيدة طويلة حاشدا ما جادت به قريحته من جميل النعوت والأوصاف ونسبتها إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام فيقول في بعضها:

بالرسول المكي سعدت ديار طيبة كيف سعدت بالبيت أم القرى ونعمت

ضمتو وأوتو من بعد موت شيبه نعم فاضل خير ديار الكرام ضمت³

¹ عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الديني الجزائري (قضايا الموضوعية وظواهره الفنية)، ج1، ص 161.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 316.

³ سعيد بن عبد الله المنداسي: تقديم وتحقيق محمد بكوشة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1968 م، ص 33.

هذا دون أن نغفل ذكر شاعر لطالما التصق اسمه بالمدائح النبوية وأشعار الزهد حتى صارت علما عليه، وكان سيد هذا المضممار وفارسه المغوار الذي لا يشق له غبار، وهو الشاعر الزاهد لخضر بن خلوف وهو معدود من أقدم شعراء الملحون في المغرب العربي قاطبة، وأكثر الشعراء إمعانا وإسهابا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتغني بجماله، حيث أخلص ديوانه وشعره لهذا الغرض ولم يكد يخرج عليه إلا في قصيدة واحدة هي "قصة مزگران" فليس أجمل فيما قرأنا وسمعنا من هذا الاستهلال من شاعرنا في إحدى قصائده المدحية:

أَحْسَنُ مَا يُقَالُ عِنْدِي بِسْمِ اللَّهِ وَبِكَ نَبْدَا
حُبُّكَ فِي سُلْطَانِ جَسْدِي مَا عَزَّكَ يَا عَيْنَ وَحْدَا
قَدْرَ النَحْلَةِ الَّتِي تَسْدِي تَبْنِي شَهْدَةً فَوْقَ شَهْدَا
يَا مُحَمَّدَ أَنْتَ سَيِّدِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ لَبْدَا

ثم يقول منها:

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ طُولَ الدَّهْرِ عَلَى نَبِينَا
قَدْرُ نُجُومِ اللَّيْلِ الْإِظْلَمِ وَالْأَمْطَارِ النَّازِلِينَا
وَاسْتَخْلَافِ الْحَوْتَ الْأَبْكَمِ فِي الْبُحُورِ الْغَامِقِينَا¹

كما يقول من قصيدة "اختارك الواحد الأحد" معبرا فيها عن هيامه وشغفه بحب النبي صلى الله عليه وسلم الذي أغناه عن أي محبوب من البشر.

مَشْغُوفٌ بِكَ مَانِي رَايِدٍ سِوَى الْجَلِيلِ وَأَنْتَ نِعَمَ الْمُرَادِ
رَعَزَعَتْهَا وَزِيرُ وَقَايِدٍ نَمْدَحُ النَّبِيَّ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ

¹ الأخضر بن خلوف: ديوان سيدي لخضر بن خلوف جمع وتقديم محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ص 41.

فالشاعر مع تغنيه بحب النبي وبوحه بذلك يشيع هذا الأمر بين الناس على رؤوس الأشهاد في مختلف النوادي والمجالس حتى يكون هذا المدح تعريفا للناس بمذهبه وطريقته في الشعر ومنهجه في الحياة من جهة، وحتى يكون كلامه (شعره) شاهدا عليه في الآخرة ويكون الناس كذلك شهودا على مدحه للنبي في الدنيا.

وهل يكفي الحديث عن المديح النبوي في شعرنا الشعبي بالوقوف عند هذين الشاعرين (المنداسي ولخضر بن خلوف) ممن تكلموا في هذا النوع وأجادا فيه القول فقط، بل نجد من هؤلاء الشعراء كذلك الذين لا يقلّون مكانة وقدرا محمد بن مسايب الشاعر الكبير الذي صدح طويلا بمدحياته الجميلة التي مازالت مرّدة على الشفاه تتلقّفها الأذان وطالما شنت أسماع السابقين واللاحقين خاصة في المواسم والأعياد الدينية كالمولد النبوي الشريف، يقول من قصيدة (الحرم يا رسول الله) التي ما زالت تردد إلى يومنا هذا في الموالد النبوية:

الحرم يا رسول الله	الحرم يا رسول الله
خيفان جيت عندك قاصد	الحرم يا رسول الله
خيفان جيت عندك قاصد	يا صاحب الشفاعة الأمجد
خوفي بزيتي نتمرم	يوم الوقوف عند الله
عاري عليك يا محمد	عار العبد على مولاه
عاري عليك يا بلقاسم	يا صاحب اللواء والخاتم
راني مع فعالي نادم	ما صبت باش نلاقي الله

¹ الأخضر بن خلوف: ديوان سيدي لخضر بن خلوف جمع وتقديم محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، ص 74.

ما تبت ما قرئت اللازم ابليس غرني بهواه¹

وهذا ابن مسايب في قصيدة أخرى يعبر عن حبه للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الحب الذي ملك عليه قلبه وأورده المهالك وسلب لبّه وعقله

عقلي لمحمد تاج الكرام باه الغرة زين الحزام

الطاهر مرفوع المقام من تترجاه الارواح

فاجي الغمة يوم الزحام بعثه ربي الفتح²

وهل يجوز أن نغفل كذلك أحد أهم الشعراء القدامى الذين عرفوا في حاضرة تلمسان إبان الحكم العثماني للجزائر وهو (ابن التريكي) فقد كان كذلك من الذين برعوا في هذا اللون الشعري وأسهبوا فيه فيقول من قصيدة (دمعي سكيب)

دَمْعِي سَكِيب والنَّارُ فَاكْبَادِي

يَا شَمْسُ الْمَغِيبِ سَلِّمْ عَلَى الْهَادِي³

ولا يتوانى الشاعر الشعبي ابن التريكي على الوقوف على الأطلال يسألها نقل شوقه وسلامه للحبيب وأهله وقومه (عرب نجد) ويحمل دموعه وحبه وعشقه للديار المحمدية الحادي وإبله، عليهم يواسونه بالتخفيف عنه بنقل جزء من أشواقه وصبابته إلى ديار مكة فيقول:

قِفْ بِتِلْكَ الدِّيَارِ وَاقْرَأِ السَّلَامَ

سَلِّمْ عَلَى عَرَبِ نَجْدٍ وَاذْكُرْ صَابَتِي وَوَجْدِي

¹ أبو عبد الله محمد بن مسايب: ديوان ابن مسايب إعداد وتقديم الحفناوي أمقران وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 31.

² أبو عبد الله محمد بن مسايب: ديوان ابن مسايب، ص 35.

³ محمد بن التريكي الملقب ابن زنقلي: الديوان، جمع وتحقيق عبد الحق زريوح، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2001م، ص 52.

كيف يُلام من بادَرَ الدُمُوع

شَوْقا لتلك الرُّبُوع¹ المَقَام

¹ محمد بن التريكي الملقب ابن زنفلي: الديوان، ص 56.